حاجى بابا إصفهانى

للكاتب الانجليزى "جيمز موري"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والستون

تجارة الغلايين . حب ابنة عثمان أغا

كان منزل عثمان أغا يقع فى حارة ضيقة تتصل بالشارع الموصل إلى سوق من أكبر الأسواق فى المدينة، ورأيت أمام باب المنزل كثيباً من القاذورات عليه عدد من الدجاج وبعده كثيب آخر عليه كلاب صغيرة تحرسها أمها، وكان عواء هذه الأجراء خليقاً بأن يمنع الطمأنينة والهدوء عن النفس، وبين هذين الكثيبين باب منزل عثمان أغا الذى دخلنا منه، وكان المنزل بناء صغيراً يحتوى على حجرات قذرة لا أثر للنظافة فيها ولا ينم شكلها عن نعمة وثراء . ولم يكن لدىّ من المتاع غير سجادة صغيرة فانتقلت من الخان الذى نزلت فيه إلى منزل الأغا، وجعلت مقامى فى ركن من أركان حجرته الخاصة ووضع هو فراشه بجانبى ونام بجوارى

ولكى يحتفل بى عثمان أغا ذبح لى كبشاً وسواه وأحضر لى صحناً من الأرز وأضاف إلى ذلك بلحاً وجبناً وبصلاً، وقد جهزت ذلك الطعام زوجته نفسها وابنتها تساعدها جارية ليس فى المنزل سواها من الخدم، ولم أكن إلى تلك اللحظة قد رأيت واحدة منهن إذ وصلنا إلى المنزل فى الظلام . ولم يكن من حسن الخلق أن أسأل عثمان عنهن إلا بقدر مايسمح هو بإخبارى.

وشاركنا فى المأدبة تاجر جلد دعاه عثمان أغا للحضور، وكان قد عرفه فى رحلاته فى بخارى . ودار الحديث فى الشئون التجارية التى كنت أجهلها ولذلك لم أشترك فيه إلا ما ندر، فرغم إرادتى الشديدة فى التحدث مع الرجل عن تلك الشئون اكتفيت بأن أنصت إلى كل ما يقال، وجلست أسمع مناقشة فى التجارة تدور بينهما وقد حذرانى من الاتجار فى الجلد وشجعانى على شراء الغلايين للتبغ لأن سوقها فى ارتفاع ولأنه لاينتظر هبوط أسعارها

انتهت الوليمة وذهب الضيف وقد شغلنى ماسمعت حتى لم أعد أفكر إلا فى الغلايين وفى الاتجار بها . وجلست طول اليوم فى ركن هناك أحسب كم غليوناً تبتاعها طوماناتى وكم أربح من بيعها فى الآستانة . وحين وصلت بخيالى إلى تلك الثروة التى ستهبط علىّ من تجارة الغلايين قلت فى نفسى : « ما أربحه منها أبتاع به تيناً من أزمير وأذهب به إلى أوربا، وهناك أبيعه بأثمان باهظة أحصل منها على ربح وافر، ثم أشترى طرابيش أحملها إلى القاهرة وأبيعها هناك فيجتمع لدىّ مال كثير أضعه فى أكياس وأذهب به إلى الحبشة فأشترى منها عبيداً وإماء أبيعهم بأثمان غالية فى اليمن ومنها أشترى بناً وأعود به إلى إيران فأنال ربحاً كثيراً ثم أستريح فى موطنى الأصلى إلى أن أتمكن من شراء منصب من مناصب الدولة قد ينتهى بى مع الزمن إلى رياسة الدولة فى حكومة ملك الملوك

وحين رتبت أمورى على هذه الكيفية شرعت فى تجارتى بعزيمة ونشاط، وبعد أن تخيرت أحسن

الطرق وأفضل الوسائل تعاقدت مع حطاب على أن يذهب إلى جبال « لور » وهناك يجد غابات من شجر يصنع منه الغلايين فيتخير منها أصلحها ثم يعود إلى بغداد حيث يجهز وتصنع لها المباسم وتصدر إلى تركيا

وعلى هذا النظام سرت ولكن فى أثناء انتظارى رجوع الحطّاب أصيبت بمرض لا يسلم منه المقيم فى بغداد فضلاً عن الغريب الزائر ، وانتهى بى ذلك المرض إلى قرحة حين تجف تترك وراءها أثراً خبيثاً فى الجلد يطلقون عليه اسم « أخت بغداد »

وكانت قرحتى فى وسط الخد الأيمن فوق نهاية شعر اللحية . وهناك تركت أثرها الخبيث بعد أن محلت جزءاً من الشعر وتركت بقعة قبيحة الشكل زرية المنظر . وتحملت تلك البلوى بصبر وجلد رغم ما كنت أشعر به أحياناً من الضغينة على القدر والحقد على الحظ لاختيار ذلك المكان من وجهى وكان لهما أن يختارا من جسمى أى مكان آخر . ثم تنهدت وقلت لنفسي : «فليكن ما أراد الله؛ فلو خير كل حجر لاختار أن يكون ماساً، ولو استشير كل رجل فى مكان قرحته لما رأيت وجهاً قبيحاً فى بغداد

ثم عزيت نفسى قليلاً بأن وجه عثمان أغا لا يعدله وجه فى الدمامة والقبح رغم أن قرحته لم تصبه فى وجهه . وقد سر عثمان أغا من مصيبتى بدلاً من أن يعزينى ويشاركنى فى الألم فقد قال لى : « إذا لم يصبك فى حياتك يا حاجى بابا غير هذه القرحة فى وجهك فعدها نعمة من الله . نعم لقد شوهت نصف الوجه ولكن النصف الآخر بقى سليماً بحمد الله »

فقلت فى نفسى : « بئس هذا الرجل ! إن قبيح الصورة لا يطيق رؤية الحسن كما لا يطيق خيار الناس أشرارهم »

ورغم ما أصبت به فى وجهى من التشويه فقد رأيت أننى أصبحت فتنة فى نظر « ديلارام » وفى قلبها . و « ديلارام » الجميلة هذه هى ابنة عثمان أغا التى لم تترك وسيلة إلا اتبعتها لتفهمنى شعورها نحوى. وكانت هى وأمها على دراية تامة بعلاج هذا المرض الذى أصبت به ، فأخذتا تعنيان بى وتمرضانى وكأنما كانت قرحتى وحب ديلارام لى — كأنما كان الأمران على موعد فقد ظهرا معاً وتقدما معاً . وفى الوقت الذى بلغ فيه مرضى أشده بلغ حب ديلارام درجة لا تطاق. والحق أقول إن عدوى ذلك الحب لم تصبنى إذ كانت فاتنتى صورة صحيحة من والدها وكنت لا أستطيع أن أميز وجه أحدهما من وجه البعير . وكنت كلما نظرت إلى وجه « فاتنتى » انقبض صدرى وتدافعت إلى مخيلتى الأفكار السوداء . ولذلك تلقيت خبر اجتماع القافلة للذهاب إلى القسطنطينية بسرور وانشراح . وجمعت غلايينى وربطتها ودفعت أثمانها واشتريت ملابس السفر . وكم كان سرورى حين أعلن أن القافلة ستتحرك عند أول فرصة . مسكينة تلك الفتاة ديلارام ! لقد جعلت تنظر إلى خدى المصاب نظرة يأس ، وما كاد يذهب الورم عن خدى وفك آخر الأربطة عنه حتى حسبت أنها فكت كل قيد كان يمنعها من الابتهاج والسرور

الفصل السادس والستون

فى طريق القسطنطينية

بدأت القافلة مسيرها فى طريق القسطنطينية فى صباح يوم من أيام الربيع وجلست فوق حمل من أحمالى وسائرها حولى، وكنت أنظر إلى القافلة نظرة ارتياح وأصغى إلى أجراس البغال كما لو كنت أصغى إلى نغمات المزمار

وكان فراشي معقوداً إلى سرجي وقد حسبت نفسي تاجراً عظيم القدر مغبوط الحال . ورافقني في رحلتي عثمان أغا وصاحبه تاجر الجلود البخاري الذي تشرفت بلقياه في الوليمة وتاجر أو تاجران من تجار بغداد . ورأيت فضلاً عن هؤلاء كثيراً من مواطني من بلاد مختلفة يقصدون إلى الآستانة في أعمال تجارية وفيهم من كنت أعرفه من قبل

وكانت قصتي مع المرحوم شيخ العلماء قد نسيت تماماً ؛ وقد جعلتني ملابسي التي اخترتها لهذا السفر والمرض الذي أصاب خدي أظهر بمظهر أهل بغداد حتى لم أعد أخشى كثيراً أن ينم شكلي على أنني إيراني . ولا أريد أن أتعب القارئ بوصف مسهب لما حدث أثناء مسيرنا في تركيا وهو يتلخص في خوفنا من اللصوص ونزاعنا مع البغالين ونزولنا في الخانات . ويكفي أن أقول إننا وصلنا إلى مقصدنا في سلام، غير أنني لا أستطيع إخفاء شعوري عند مشاهدتي للآستانة

إنني كإيراني أصفهاني كنت معتاداً أن أحسب بلدتي الأصلية خير بلاد العالم وأرقاها فلم يخطر ببالي قط ولا دار بخلدي أن بلدة أخرى يمكن أن توازن بها حتى لقد كنت أضحك مستهزئاً ممن يصف عاصمة أرضروم بما يفوق بلدتي حسناً . ولكن أية دهشة استولت علي وأي ذهول شملني حين رأيت لأول مرة تلك المدينة الضخمة

كنت أحسب أن مسجد أصفهان الشاهاني المبني في الميدان الأكبر أضخم مباني العالم وأحسنها فإذا بي أرى هناك مائة مسجد أعظم وأفخر مما كنت أحسب وكل مسجد يفوق الآخر حسناً وبهاء

لم أكن أظن أن مكاناً أوسع وأرحب من موطني الأصلي فإذا بي أرى ما لا عداد له مما يضل النظر فيه . ولئن كانت أصفهان نصف الدنيا فهذه المدينة هي الدنيا بأجمعها ! وأين من هذه المباني الفخمة مباني أصفهان ؟! هنا مبان مقامة على ساحل متموج جميل وهي تطل على الماء الأزرق الرجراج ، وهناك مبان أحاطت بها الجبال الجرداء

ولاتساع المدينة وجمالها ووقوعها على ضفاف البحر تظهر كأنها منعكسة على سطح مرآة فيتضاعف اتساعها ويكثر رونقها وجمالها . ولئن أردت وصف كل ما في المدينة من جمال يسحر النظر ويخلب اللب فلست بمنته أبداً ... آلاف من القوارب المختلفة الأشكال والأحجام تسبح على سطح الماء ، وبوارج لساريتها شكل الغابة ملأت ذلك المرفأ الجميل وجعلت للميناء شكلا رهيباً

قلت لواحد ممن كانوا حولي : « والله هذه جنة فليتني لا أفارقها ! » ... غير أنني ما فكرت فيمن بأيديهم هذه الجنة ولا في العداوة التي بين قومي وبينهم ؛ ولما فكرت في ذلك ذكرت أنهم قوم لا تصلح لحاهم مكانس لأبناء وطني ، وشعرت بتنزلي العظيم وبوضعي من قدر نفسي باختلاطي وإقامتي مع هؤلاء القوم . وخرجت من تأملاتي بتعزية واحدة تعزيت بها ، وهي أن هؤلاء القوم الذين أراد الله أن يتمتعوا بتلك الجنة ويمرحوا في جنباتها في هذه الدنيا لهم يوم رهيب تصطك منه الفرائص وتنخلع من هوله القلوب وهو آت لا ريب فيه

بعد أن انتهينا من الأعمال التي لا بد منها في الجمرك ركبت أنا وأصحابي زورقاً أقلنا من أسكوتاري إلى دار السعادة ونزلنا بمتاجرنا وأمتعتنا في خان يؤمه تجار إيران واقع في الجزء المتوسط من

المدينة وعلى مقربة من أسواقها ، وقد شعرت أننى ضئيل لا قيمة لى عند ما فكرت فى أننى لست إلا فرداً واحداً بين تلك الجموع الهائلة التى تنساب فى طرق المدينة ليل نهار من غير انقطاع ، وحين شاهدت النفائس الغالية تملأ المخازن، والملابس الفاخرة يرتديها كل ساكن، والنبلاء والأغوات على صهوات الجياد المطهمة لا ينقطع لهم مرور ولا يقف لهم تيار ، وتهدت محدثاً نفسى : « أين من عظمة القسطنطينية وجلالها وأبهتها وغناها فقر إيران المدقع وفاقتها الشاملة ؟ »

ثم استأجرت مع عثمان أغا حجرة فى الخان الذى أودعنا فيه بضائعنا وجعلت أثناء النهار أفرش غلايينى على أحد الأرصفة ، ولجودة بضاعتى ورخص أثمانى أخذت أبيع كميات وافرة وأحصل منها على ربح عظيم ، وجعلت لما رأيت المال يعود إلى جيبى ثانية أمتع نفسى بملاذ لم تكن تخطر لى على بال من قبل : جملت نفسى بملابس أكثر حسناً وهنداماً وابتعت شبكاً جميلاً وتحزمت بشال له ألوان زاهية

واشتريت كيساً حريرياً للتبغ ولبست حذاء أصفر لامعاً وحملت خنجراً له بريق يخطف الأبصار

كنت محاطاً بكل ما يدعو إلى الإنفاق ويغرى بالتبذير ، وبدأت أنظر إلى ما فى الحياة من مباهج وملاذ — نظرة المتعلق المشغوف؛ وكان بالمدينة محال كثيرة أستطيع أن أظهر فيها أمام الجماهير بشكلى الأنيق ولم أحجم عن ارتياد المقاهى الخاصة بالناس أجلس على دكة عالية وأتكئ على وسائد ناعمة وأدخن فى غليونى وأرتشف القهوة كأحد أفراد الطبقة العليا

وقد علمتنى الحوادث وما قاسيت فى إيران أن أحذر أبناء جلدتى وأتجنبهم فتجنبتهم وجعلت أبحث عن صداقة الأتراك ؛ ولكن مواطنىّ من الإيرانيين كانوا فضوليين وكانوا يشعرون بالإهانة عند أقل إعراض عنهم فلم يلبثوا حتى عرفوا من أنا ومن كنت . ثم جعلوا ينظرون إلىّ نظرة لا تنطوى على شىء من الاحترام . وعلى أية حال فقد اجتهدت أن أعيش على وفاق معهم ، وتركونى أسلم من شرهم ما دمت لا أنازعهم فى أى شأن من شئون التجارة

وكنت أعلن عن نفسى فى محال اللهو العامة أننى من أغنياء بغداد وقد أكد قولى وألبسه ثوباً من الصحة أثر العلة التى انتابتنى والتى كنت أعدها مصيبة عظمى قبل أن أجنى بسببها الربح

ولم أجد أسهل من غش الأتراك وخداعهم بالمظاهر الخارجية ، وحاكيتهم فى سكونهم ووقارهم وفى سلوكهم الهادئ الرصين حتى وفى مشيتهم البطيئة وألفاظهم المرتبة ؛ وقد رجوت أن أتقن كل ذلك فى وقت قصير حتى إذا ما تم لى ذلك اندمجت فيهم

وكنت أكثر من ذكر الله بصوت خافت ضعيف ومن عد المسبحة حتى كنت أستقبل فى المقهى الذى كنت أرتاده بكل احترام وتعظيم

وكان صاحب المقهى يصنع قهوتى بيده ويصبها بحركة فنية ولم ينس مرة أن يرحب بى ويلقبنى بلقب أغا . وقد بلغ من نفوذى على القوم وعظم قدرى فى نفوسهم أنه إذا حدثت مناقشة حادة أو جدال عنيف فى المقهى عن الخيل أو الكلاب أو السلاح أو التبغ (وهى الأشياء التى تدور حولها مناقشاتهم) كان يشار إلىّ بالبنان ويكفى أن تلفظ شفتاى كلمة « نعم » أو « لا » لكى أنهى الجدل فيعود الحديث إلى ما كان عليه

الفصل الخامس والستون

حادثة حاجى بابا مع أرملة الأمير

ظللت أعيش كما وصفت مدة من الزمن إلى أن لاحظت فى ثلاث ليال متوالية حوالى الغروب أثناء خروجى من المقهى أن امرأة عجوزاً تقف فى ركن من زقاق ضيق تجاه المقهى وتحدق فى وجهى وتظهر عليها الرغبة فى محادثتى، وكانت بين كل آونة وأخرى تنظر إلى نوافذ المنزل الذى اتخذت بأسفله المكان الذى تقف فيه ثم تدعنى بعد ذلك أمر فى طريقى. لم أعرها شيئاً من الاهتمام أول مرة فإن وقوف سيدة عجوز فى ركن من أركان زقاق صغير ليس بالأمر الذى يدعو إلى الاهتمام أو الملاحظة، ولكننى دهشت فى المرة الثانية وانتبهت إلى نفسى، وأثارت المرة الثالثة عجبى وريبتى، وصممت فى رابع ليلة إن أنا وجدتها فى مكانها أن أعرف مقصدها. وعلى ذلك لبست أفخر ملابسى معتقداً أن جمال طلعتى وحسن حظى كفيلان بوقايتى ثم خرجت من المقهى ومشيت متمهلاً مختالاً إلى جهة تلك السيدة الغريبة، وكنت على وشك لقائها إذ فتحت نافذة من نوافذ المنزل فجأة ورأيت وجهاً نسائياً ساحراً أمام ناظرى وكان آية فى الجمال والحسن وفى يد صاحبته وردة أدنتها من وجهى ووضعتها على فؤادها ثم ألقتها إلىّ وأغلقت النافذة بسرعة مدهشة حتى لقد ظننت أن ما حدث كان خيالاً ظهر ثم اختفى

ظللت واقفاً فاتحاً فمى ناظراً إلى النافذة حتى شعرت بيد العجوز تجذبنى من كمى وقد التقطت الوردة وناولتها لى فالتفت إليها وقلت لها: « ما هذا بالله عليك! أمن الإنس ذلك الوجه الصبيح أم من الجن؟ »

فأجابتنى تلك العجوز: « ألا تزال غراً فلا تعرف معنى إلقاء هذه الوردة إليك؟ إن لك ذقناً طويلة ولست غلاماً؛ ويظهر أنك سافرت كثيراً وتغربت ولكنك إن كنت لا تعرف ماذا تقصد السيدة من إلقاء وردة إليك فقد سافرت بلا نتيجة ولم يعلمك الاغتراب والتجاريب شيئاً »

فقلت لها: « بلى، إننى أعرف أنها تريد القرب وتمنى المحبة والائتلاف وتشير إلى أن رأسينا يجب أن ترفعهما وسادة واحدة: تعلمت هذا من أسفارى وتجاريبى ولكن الأسفار والتجاريب علمتنى فوق ذلك أن أمثال هاتيك الحوادث لها مالها من خطر وضرر وأن رأسينا قد تقطعان بدل رفعهما على وسادة واحدة »

فقالت محدثتى متأثرة منفعلة: « لا تخف شيئاً. أقسم لك بحرمة نبينا الكريم إنه لا خوف عليك ولا ضرر. إننا قوم عظماء وقد تفوتك ثروة إذا لم تقبل ما أعرضه عليك. هل وصل بك الحمق والغباوة أن تخشى الأوهام وتخاف الظلال؟ إن خوفك لا أساس له »

فقلت لها: « حدثينى من هذه السيدة التى رأيتها وماذا يجب أن أصنع؟ » فأجابتنى: « لا تتعجل كثيراً. لا يمكن أن يتم أمر فى هذه الليلة وعليك بالصبر فإن الوقت والمكان غير ملائمين. قابلنى غداً وقت الظهيرة عند مقبرة أيوب وستعرف كل ما تود معرفته. سأكون جالسة على قبر أول أمير على يمينك ويمكنك أن تميزنى عن سائر النساء بشال أحمر تراه على كتفى الأيسر فاذهب الآن والله معك! »

وافترقنا على ذلك فرجعت إلى حجرتى فى الخان أفكر فيما حدث ولم أشك فى أن خيراً ينتظرنى، غير

أنى كنت أسمع عن غيرة الأزواج الأتراك قصصاً مخيفة وخفت أن أصير ضحية غيرة شديدة وأن يقتلنى زوج على مذبح غضبه ، ثم توالت على مخيلتى ذكرى كل حب عاثر ، وحادثة كل غرام ضائع ، فذكرت زينب وبرجها ، ومريم ويوسفها ، وديلارام وقرحتها فخفتت كل رغبة كانت عندى فى مجاراة عواطفى ، وخفتُ أن تكون النتيجة شؤماً علىّ .

غير أن دم الشباب كان لا يزال يجرى فى عروقى فعزمت على أن أقبل كل ما تطلبه . وفى ظهر اليوم المعين ذهبت إلى مقبرة أيوب وبحثت عن أول قبر لأمير فرأيته ، ولهذا القبر شاهد عليه عمامة خضراء . ووجدت هناك العجوز بوشاحها الأحمر ، وتجنبت معها الطريق العام واتخذنا مجلسنا فى ظل شجرة عالية فى جانب المقبرة ، وهناك جلسنا وأمامنا منظر الميناء البديع وبدأنا نتحادث فى موضوعنا . بدأت السيدة بشكرى على احتفاظى بميعادها ثم أخذت تؤكد لى أن ما ستعرضه علىّ لا خوف منه . وكان للسيدة حنكة المجاثر ومكرهن . وأخذت تكلمنى بخبث ودهاء دون أن تقترب كثيراً من موضوعها وصرحت لى بميلها إلىّ ورغبتها فى قضاء الأوقات معى .

وكنت أخشى أن يضيع معظم كسبى من الغلايين فلم أتركها تسترسل كثيراً وأوقفتها عند ذلك الحد ، وطلبت إليها أن تخبرنى عن قصة الغادة الجميلة التى رأيتها فى النافذة فحدثتنى الحديث الآتى

قالت : « إن السيدة التى رأيتها والتى أخدمها هى ابنة أحد التجار فى حلب . وكان لأبيها خلافها ولدان ، ومات الوالد من زمن ليس بالبعيد فخلفه فى تجارته ولداه وهما الآن تاجران لهما ثروة طائلة ، ويقيمان فى نفس هذه المدينة .

وتزوجت سيدتى واسمها « شكرليب » أى « معسولة الفم » من أمير هرم واسع الثروة ، وكان يأبى أن يكون له أكثر من زوجة واحدة لأنه عرف من تجاربه أن بيته لا تحل فيه الراحة ، ولا تزوره السعادة إن هو سمح لنفسه بالإكثار من الزوجات معتمداً على إباحة دينه جواز التعدد .

وكان مغرماً بالسكون والراحة العائلية ، وظن أنه باقترانه من فتاة صغيرة السن يستطيع أن يعودها طباعه ويمرنها على ميوله فلا تعارض له رغبة ، ولا تعصى له أمراً . ونجح فيما أراد إذ لم يخلق الله من هى أرق طبعاً ، وألين جانباً من سيدتى . ولكن أمراً واحداً ظل منشأ الاختلاف ومصدر النزاع بينهما فلم يكن فى استطاعة الزوجين أن يتفقا عليه . وكان ذلك الأمر من العوامل التى أدت إلى موت الأمير فيما بعد .

وكانت سيدتى تحب الفطائر المحشوة بالزبد ، ويحبها الأمير محشوة بالجبن فظلاً خمس سنوات يتشاحنان على مائدة الإفطار كل يوم إلى أن حدث منذ ستة شهور أن الأمير الهرم تناول كثيراً من الفطائر المحشوة بالجبن والتى يحبها فأصيب بتخمة ومات على الأثر تاركاً لزوجه حسب الشريعة المحمدية ربع أملاكه من عقار ومنقول وعبيد وغير ذلك

وقد رغب فى سيدتى الكثيرون لشبابها الغض وجمالها الفتان وثروتها الطائلة ، ولكنها أوتيت ذكاء وحكمة نادرين فيمن هو فى مثل سنها من النساء فلم تقبل أن ترتبط بعقد جديد وآلت على نفسها أن تصبر حتى تتاح لها فرصة الزواج من رجل تحبه حباً حقيقياً ولا يكون الدافع له ثروتها أو مركزها ولوقوع منزلها أمام مقهى من أعظم المقاهى

فى المدينة أخذت تراقب من يرتادها من الزوار . ولست فى حاجة إلى إخبارك أنها رأتك أجمل من وطئت قدماه المقهى ، ورأت فيك الرجل الذى كانت تحلم به »

ثم قالت العجوز بعد ذلك : « وأخى هو ساحب المقهى فطلبت إليه أن يستعلم عنك ويعرف من أنت وما شخصيتك . وقد أطربت سيدتى إجاباته واجتهدنا بعد ذلك أن نلفت نظرك إلينا وأن نتعرف عليك إن أمكن ، وأنت تعلم كيف كلل مسعانا بالنجاح . ولك أن تحكم الآن هل ترانى قدمت لك خدمة عظمى أم لم أقدم »

وقد شعرت بأنى كنت أفرج عنه بعد الحكم عليه بالموت إذ لم أكن أتصور فى أول حديثى مع تلك العجوز أننا سنصل إلى هذه النتيجة . واختفى من أمام ناظرى ما كنت أتخيله وأخشاه من عجائب وأسرار ومن تسلق للحوائط وقفز من النوافذ ومن مؤامرات تركية وخناجر ودماء . وحل محل ذلك كله تصور الثروة والراحة من عناء وكد . ورأيت باب السعادة مفتوحاً أمامى على مصراعيه

لم أتردد ولم أحجم بل قلت لها : إننى سأكون لسيدتها محباً متفانياً فى الحب إلى الأبد واستعملت كل ما وهبنى الله من كلام معسول ، وقول خلاب وأقسمت لها أننى سأجزل لها العطاء مكافأة على خدمتى

فقالت العجوز : « إن أمراً واحداً طلبت منى سيدتى أن أستوثق منه قبل أن ترضى بك وتقبلك وهو مركز أسرتك وقيمة ثروتك إذ يجب أن تدرك أن أخويها وأقرباءها متكبرون فإذا ما أقدمت على زيجة لا تليق بمركزها كان ذلك مدعاة لمعاملتها بكل قسوة وخشونة وسبباً فى إساءة زوجها إن لم يكن فى ضياعه »

ولم أكن مستعداً لمثل هذا السؤال . ولكن سرعة البديهة التى أدركت بها مقدار ما ينتظرنى من جاه وثروة كانت عونى فى الإجابة من غير تردد ، وقلت : أسرتى ! أتقولين عائلتى ؟ من فى العالم لا يعرف حاجى بابا ؟ سلوا إن شئتم من أول حدود اليمن إلى آخر حدود العراق ومن بحار الهند إلى شواطىء قزوين فستجدون اسم حاجى بابا أشهر من نار على علم

فقالت : « ولكن من يكون أبوك ؟ »

قلت بعد أن سكت برهة : « أبى ! أأبى تعنين ؟ لقد كان أبى صاحب سطوة وجاه عظيمين وكم من رؤوس خضعت لإشارة من أصبعه وكم من رجال أحنت أمامه رؤوسها وسحبها من ذقونها وفعل بها ما لم يفعله رئيس الوهابيين »

وكنت فى أثناء قولى هذا قد وجدت من الوقت ما يكفى لخلق قصة مناسبة فى مخيلتى وظللت أقول للسيدة مايدهشها فأطالت التحديق فى وجهى ، وقالت : « إن كانت سيدتك تريد دماً نبيلاً وأصلاً كريماً ومنبتاً فاضلاً فإلىّ يجب أن تتجه نظراتها ، وإلىّ يجب أن يكون مصيرها . إنها وإخوتها مهما بلغ من أمرهم فلن يفوقونى حسباً ولا نسباً . كان جدى المنصورى من بطن نجد فى جزيرة العرب وقد أقامه الشاه اسماعيل شاه العجم العظيم مع قبيلة فى جهة من أخصب مراعى العراق فأقام فيها منذ ذلك الحين

وكان جدى لأبى يدعى خاطر بن خور بن أسب ابن المدين من قبيلة قريش وهو شريف من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام »

فصاحت المرأة : « ماشاء الله ! كفى ! كفى !

إن كنت أنت من وصفت فسيدتى لا تطمع فى المزيد؛ ولئن كانت ثروتك تتناسب مع شريف أصلك فليس لنا بعد ذلك أى قول »

فأجبتها : « أما من جهة ثروتى فإننى لا أفخر بما لدى من مال عينى وثروة مجموعة فأى تاجر لديه مال أو ثروة من نقد ؟ لكن مال التاجر فى بضائعه المنتشرة فى كثير من بقاع العالم والتى لا تلبث حتى تعود بربح عظيم . إن حرائرى وبضائعى الأخرى من قطيفة وديباج فى طريقها إلى خراسان وسأستحضر بدلاً منها جلوداً من بخارى وعملائى اليوم فى مشهد بما معهم من ذهب وعطر لشراء شيلان الكشمير وأحجار الهند الثمينة. وفى استراخان يستبدلون بالسمور وأنواع الزجاج بضائعى الهندية أما بضائعى فى حلب فسترد إلىّ بدلها طيالس وشيلان على أننى لا أحدد ثروتى ولا أحصيها ولو أردت ذلك لكنت كمن يريد عد حبات القمح فى المزرعة . وإنما قولى لسيدتك فى غير مبالغة إن الرجل الذى وقع عليه اختيارك لو جمع ثروته لأذهلك وأذهل أسرتك مقدارها »

فقالت المرأة : « حمداً لله وشكراً ! هذا ما كنا نتمنى ولم يبق إلا أن أجمعكما معاً فلا تنس أن تكون فى ركن من الرقاق عند ما يخيم ظلام الليل حتى أقدمك بكل حيطة وحذر إليها . وإذا رقت فى عينيها لم يحل حائل بين زواجكما وسعادتكما . ولم يبق إلا أن أنصح لك نصيحة وهى أن تحب القطائر المحشوة بالزبد وأن تبدى نفورك من المحشوة بالجبن وأما فيما يتعلق بأى موضوع آخر غير هذا فسيدتى لا تعلق أهمية ولا تبدى اعتراضاً »

ثم سلمت علىّ متأذنة بالذهاب فوضعت فى يدها قطعتين ذهبيتين أخذتهما بغير اعتراض . ثم تركتنى فى تأملاتى وسارت .

الفصل الثامن والستون

زواج حاجى بابا من شكر لب

لم أبق فى موضعى تحت شجرة الصفصاف كثيراً إذ كان يجب أن أؤدى جملة أعمال قبل أن يحين موعد التلاقى ، وعدت لألبس لباساً يدل على النعمة وينم على الثروة والجاه ، ولأحمل كيس دراهم مملوءاً ، ولأظهر بمظهر يليق بمركزى الجديد . وفوق ذلك فقد سرنى أن أجعل شخصى ما اسطعت بأن أذهب إلى الحمام فأغتسل ثم أتعطر وأتطيب ، وجعلت أثناء مسيرى أحدث نفسى مسروراً : « إيه يا حاجى بابا ! لقد برهنت هذه المرة على ما بين العاقل والغبى من فروق ... لقد أحسنت وأجدت يا ابن المنصورى ويا ربيب قريش ! »

وصلت إلى الخان وأنا أسبح فى لجة من الأفكار وبحر من الآمال . رأيت الشيخ عثمان أغا جالساً فى ركن من أركان الحجرة بعد ما ربحه من بضائعه ، ورأيت فى الركن الآخر غلايينى وقد وازنت بين هذه التوافه وبين مايجول بخاطرى من عظيم الآمال حتى ظهر على تأثير هذه الموازنة وشعرت بكبرياء وعظمة لم أشعر بمثلهما من قبل . ولست أدرى إن كان عثمان أغا قد لاحظ شيئاً من ذلك، ولكنه ذعر حين طلبت منه أن يعطينى بغير إمهال خمسين قطعة ذهبية على أن أودع بضائعى رهينة لديه ضماناً لماله

قال لى : « ما هذا الذى تطلبه يا بنى ؟ ماذا تريد أن تفعل بمثل هذا المبلغ الكبير وبمثل هذه السرعة ؟ هل جننت أم أصبحت من ضحايا الميسر؟ »

فأجبته : « غفر الله ذنوبى ! لست مجنوناً ولا مقامراً ولا يزال عقلى معى وقد أقبلت على الدنيا بعد إدبارها ، فأعطنى المال أولاً وسأقص عليك خبرى بعد ذلك »

ولم يتردد الرجل طويلاً فى إجابتى إلى رغبتى إذ كان يعلم قيمة بضاعتى ويعلم أن الصفقة رابحة ، فأخرج المال وعد خمسين قطعة ناولها لى ، فأخذتها وتركته وخرجت فاشتريت ملابس فى غاية الوجاهة وأسرعت إلى الحمام فاغتسلت وأتممت كل ما كنت أريد من زينة وحسن زى وخرجت كأحد الأغنياء

وكان فى أثناء ذلك قد حل ميعاد المقابلة فسرت بقلب يخفق وينبض إلى المكان المعين ، ووجدت العجوز فى الانتظار . وبعد أن نظرت حولها لترى هل من أحد يلاحظنا تقدمتنى إلى باب فى مكان مختف فى المنزل ودخلت فدخلت وراءها ، وسررت من السكون والهدوء الشاملين للمنزل إذ كنت أنظر إلى نفسى كأننى صاحب المنزل ، وسيد من فيه .

ذهبنا إلى الجناح المخصص للسيدات وكان حذرنا واحتراسنا كما لو كان الأمير لا يزال حياً يرزق . دخلنا من الباب إلى ردهة كبيرة فيها نافورة ماء . ثم صعدنا سلماً خشبياً فرأينا فى نهايته ستاراً متعدد الألوان وتخطينا الستار إلى حجرة أخرى لم أر فيها من المنقولات غير أحذية نسائية وغير مصباح معلق

تركتنى قائدتى فى هذه الحجرة ، وذهبت تخبر سيدتها بقدومى ثم سمعت أصواتاً عديدة من الحجرات المجاورة فظننتها لصاحبات تلك الأحذية . وأخيراً فتح باب فى طرف الحجرة — وكان بالحجرة أربعة أبواب غيره — وأشير علىّ أن أتقدم .

أخذ قلبى يخفق فى عنف ، وأنا أتقدم إلى ذلك الباب . وأردت أن أظهر فى شكل الرجل الوقور فلففت نفسى بأطراف عباءتى ودخلت حجرة يضيئها مصباح واحد يلقى نوره على ما بها من متاع .

وكان بالحجرة إيوان عليه غطاء من أطلس ثمين لامع أزرق اللون ، ورأيت فى زاوية منه بقرب النافذة من أتيت لرؤيتها .

لم أتمكن من رؤية شىء منها غير عينين سوداوين ظهرتا كأنهما تضيئان فى سماء حياتى . وأشارت إلىّ بيدها أن أجلس ، فأبيت احتراماً لها ، ولكنى حين وجدت أن الإباء لا يجدى خلعت نعلى وتربعت على البساط وأدخلت يدى فى أكمام ردائى وتكلفت حياء وخجلاً لا أزال إلى اليوم أضحك حين أذكرها .

جلسنا متقابلين بضع دقائق لم نتحدث فى غير المألوف من ترحيب وتسليم ، وبعد ذلك أمرت السيدة خادمتها عائشة (وكان هذا هو اسم التى قادتنى إلى المنزل) أن تترك الغرفة وتخرج ثم تظاهرت بالميل تريد أخذ مروحتها المصنوعة من ريش الطاووس وكانت على الوسادة فسقط نقابها ورأت عيناى أجمل وجه خلقه الله وكانت حركتها هذه دليلاً على انعدام الكلفة فأخذت أنظر إلى معبودتى نظرة هائم مدله مظهراً لها شدة إخلاصى وإعجابى بجمالها وشوقى وهيامى بها حتى لا أجعلها تتردد لحظة واحدة فى الاعتراف برقة فؤادى ونبل شعورى ودقة فهمى وسلامة ذوقى ، ولم تمالك أرملة الأمير من أن ترى فىّ الرجل الذى تتمناه فى أحلامها ، وعلمت أننى أرضيتها ونلت ثقتها حين ائتمنتنى على أسرارها وأطلعتنى على دخائل نفسها وقالت : « إننى فى مركز حرج وحال مرتبكة فقد فعلت عيون الحساد فعلها فى حياتى وأنت تعلم أن زوجى أسبغ الله عليه رحمته

وعفرانه ترك لى مالاً كثيراً فأصبحت باضافته إلى مالى الخاص على درجة من الغنى تحرك الأطماع وسببت لى ثروتى الطائلة متاعب وآلاماً كادت تذهب بعقلى

ادعى كل من أقربائى حقوقاً لا أصل لها وطلب كل من يمت إلىّ بصلة طلبات كأننى أنا جزء من بيت المال وكأن ثروتى ثروة عامة . وأظهر أخواي أفكاراً خاصة ورغبات معينة فى اختيار زوج لى كأنما الزوج الذى أختاره يجب أن يوافق مزاجيهما قبل مزاجى، ويجب أن يرتاحا إليه دون نظر إلى عواطفى وميولى ، وكان لزوجى ابن أخ من رجال القانون وقد ادعى أن التقاليد القديمة تخول لقريب الميت حقاً على زوجه وأن فى استطاعة ذلك القريب أن يظهر رغبته فى التمسك بحقه ليلقى عباءته على أرملة قريبه المتوفى

وادعى قريب آخر أن لا حق لى فى كل ما ورثت وما أملكه الآن وهددنى بأخذ ثروتى . فساورتنى الهموم والمتاعب ولم أجد فى ظروفى التى ذكرتها لك من ينقذنى ويمد لى يد المساعدة غير زوج أختاره أنا وقد أرسلك القدر إلىّ فالحمد لله على ذلك »

ثم أعلمتنى بكل ما أعدت لعقد زواجنا العاجل

وأشارت فى حديثها إلى رجل من رجال الشرع اختارته لكتابة الوثائق وقالت : إن الرجل موجود بالمنزل وعلى استعداد لإتمام العقد فشعرت باضطراب عنيف إذ لم أكن أنتظر مثل ذلك الانتقال من حالى التى كنت فيها إلى سماء العز والغنى؟ غير أنى لم أنس أن أظهر لها الحب الكامن فى صدرى وقلت لها : إن حبى سيكون أبدياً وإن عاطفتى لا تزول ما بقى فىّ عرق ينبض وفؤاد يخفق ، ولم أقل عن نياتى ومقاصدى إلا كل ما تطرب له ويرقص فؤادها لدى سماعه . ولقد خافت التأخير فأسرعت بنداء خادمتها المجوز عائشة وأمرتها أن تقودنى إلى المأذون الذى حدثتنى عنه والذى كان ينتظر أوامرها فى مكان آخر من المنزل . ورأيت مع الرجل إنساناً آخر أحضره معه ليكون الوكيل عنى فى العقد . وقال لى المأذون الشرعى إن ذلك واجب من جانب الرجل كما هو لازم من جانب المرأة ثم عرض سجل العقود وكان قد قيد فيه ما تملكه العروس من مال وضياع ومتاع وطلب إلىّ أن أخبره بما يقيده ليضيفه إلى ما كتب

وهنا أخذت وذعرت، غير أنى لم أجد خيراً من أن أجيبه بمثل الذى أجبت به عائشة من قبل فقلت : « إن التاجر لا يستطيع تحديد ثروته المتفرقة فى مختلف الجهات وشتى البلدان بضاعةً ومتاجرَ إلا أننى أهب كل ما أملك لزوجتى فزواجنا أبدى لا افتراق بعده ولا طلاق»

قالت العروس : هذا حسن غير أننا نريد ذكر شىء محدد فقل لنا ما تملكه هنا فى دار السعادة على سبيل المثال . إنك لم تحضر طبعاً إلى هذه المدينة إلا لأعمال هامة فاذكر لنا ثروتك التى تحت يدك وذلك يكفى مؤقتاً

فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت : « ليكن ذلك ! فليكن ما تريدين ! اصبرى قليلاً » ثم سكت كأننى أحسب ما معى من بضائع . وبعد لحظة قلت فى ثبات وجرأة : « إننى أعطى زوجتى عشرين كيساً من الذهب وعشر حقائب من الثياب »

ودار بعد ذلك حديث بين أرملة الأمير وبين المأذون . وبعد مفاوضة قصيرة انتهى الأمر برضاء وقبول وبصمنا جميعاً على وثيقتى الزواج والهبة بعد

أن انتهى المأذون من خطبة الزواج . وبذلك تم العقد على حسب الشريعة وهنأنى الحضور وشكرت لهم

ولم أنس أن أكافئ الشيخ وابنه وأن أعطى الخدم وأرسلت مبلغاً ليقسم على القيمين بالقصر جميعاً. وبدلاً من أن أرجع إلى عثمان أغا وأنام على وسادة من غلايين دخلت إلى مكان الحرم تحف بى مظاهر العظمة والجلال وأحس كأنى رجل آخر غير الذى تعرفه أيها القارئ

الفصل التاسع والستون

من تاجر غلايين الى أغا عظيم
متاعب من شخصيته المستعارة

سرعان ما أدركت أن أمامى طريقاً وعراً وأننى مقابل عقبات كثيرة . ولقد قيل إن فيلسوفاً صينياً قال مرة: إن عملية الأكل لو اقتصرت على ما يحدث بين الفم وطبق الطعام لكانت أسهل العمليات وأطيبها، ولكن هناك المعدة وأجهزة الهضم بل هناك بقية أعضاء الجسم كله وهى التى تحكم إن كانت عملية الأكل طيبة أم خبيثة

وكذلك الحال فى الزواج فلو اقتصر الأمر فيه على ما بين الرجل والمرأة لهان الخطب ولكن هناك الروابط العائلية وعلاقات القرابة تقرر سعادة الزواج أو شقاءه وراحة العروسين أو تعاستهما

أخذت عروسى الفتانة بعد زواجنا تحدثنى أياماً متوالية وليالى طوالاً بأتفه الأحاديث وأخبثها عن أفراد أسرتها وتنازعهم وغيرتهم وبغضهم وعن كل مايشعرون به نحوها من شر وما يريدونه لها من أذى حتى ظننت أنى إنما دخلت وكر ثعابين وعش عقارب

ولقد فضلت زوجتى أن تستعمل نهاية الاحتياط فى إخبار أخويها بزواجنا وقالت : إن الزواج وإن كان شرعياً إلا أن دوامه متوقف على إرادتهما إذ هما من أغنياء التجار ولهما نفوذ كبير فى المدينة فيجب ألا تدخر جهداً فى مرضاتهما

وكانت عروسى قد رأت أن تخطو خطوة فى سبيل غرضها فى حذر وانتباه، فأعلنت أن فى عزمها أن تتزوج من أكبر تجار بغداد غنى وجاهاً ، ولكنها لم تقل إن الزواج قد تم

وكان إشهار زواجنا يستدعى أن نولم وليمة ندعو إليها كل أفراد أسرتها ، ونبذل عن سعة لتكون الوليمة أفخر الولائم ، ولكى يقتنع أهلها بأنها لم تلق بنفسها بين أحضان حقير أو محتال

وقد وجدت منى ملبياً لرغباتها مطيعاً لأوامرها وسرت بسنوح فرصة سريعة يذيع فيها أمر ثروتى وبدأت فى استحضار سرب من الخدم كل منهم له عمل خاص ولقب يناسبه . واستبدلت بقصبات التدخين التى أحضرها الأمير المرحوم قصبات أخرى أحسن منها وأغلى ثمناً وأحدث طرازاً . وكذلك أحضرت طقماً جديداً للقهوة بديع الصنع غالى الثمن بعض قطعه موشى بالذهب والبعض الآخر مطعم بالعاج وفيه طبق أو اثنان طعما بالأحجار الكريمة لاستعمالى خاصة

ثم اخترت من أحذية الأمير ما راق فى نظرى وكان الأمير مغرماً بانتقاء فاخر الملابس وغاليها من عباءات وقفاطين وفراء تصلح للملوك ، وقد أخبرتنى زوجتى أن تلك الملابس من آثار عائلة الأمير ومخلفاتها الثمينة فلم أحجم عن اتخاذها لنفسى ووجدت قبل أن يحين يوم الوليمة من الوقت ما يكفى لإعداد ما يليق بأغا من أعظم الأغوات : وإنى أعتقد رغم كونى

إن خلاق أن ليس لأحد من الشكل والأخلاق وحسن التصرف ما يؤهله لإتقان دورى هذا الجديد خيراً منى، ويجب أن أذكر أننى قبل ذلك الاحتفال العظيم لم أنس أن أزور أفراد عائلتى الجديدة كما يقضى الواجب ...

كنت أحسب لتلك الزيارة ألف حساب متخوفاً من نتيجة مقابلتى أفراد الأسرة ولكننى حين سرت فى شوارع المدينة راكباً جواداً من جياد المرحوم يحيط بى جمع غفير من الخدم والحشم ذهب عنى الخوف وشعرت بالطمأنينة والانشراح. وإن من ينظر إلى الجموع السائرة وهى تفسح لى الطريق وتتطلع إلىّ ثم تضع أيديها على صدورها عند مرورى، وإن من يرى جوادى وهو يضرب الأرض بحوافره ويتبختر فى مشيته فخوراً بمن يحمل على ظهره، وإن من يتنعم بما كنت أنعم به من جلسة على ظهر جواد كريم بينما يمشى الآخرون على أقدامهم — كل من يرى ويشعر بما كنت فيه ولا يأخذه الذهول ويملكه العجب فليس آدمياً

ويجب أن أضيف هنا أننى حين خرجت فى شكلى المتقدم وقمت عيناى على بعض مواطنىّ وأبناء بلدتى « الأعزاء » ممن رافقونى فى القافلة من بغداد وكانوا فى أسمال بالية وحال زرية وكأنما كان ظهورهم أمامى فى شوارع المدينة باعثاً على ذكر ما أنعم الله علىّ وشكر ما أعطانى

ولم أعرف إن كانوا قد تبينوا حقيقتى أم جهلوا أمرى فإننى أدرت وجهى وسرت مجتهداً أن أخفى ملامحى فى ظل عمامتى الكبيرة ولحيتى الطويلة

وكانت نتيجة زياراتى فوق ما كنت أتصور، ولست أعرف ماذا كان شعور أصهارى غير أن أخوى زوجتى عاملانى بلطف ورقة ورحبا بى قائلين: إننى زدت أسرتهما شرفاً وفخاراً باقترانى من شقيقتهما ولاشتغالهما بالتجارة تحول مجرى الحديث إلى الشئون التجارية فاجتهدت أن أدخل فى روعهما أننى تاجر عظيم، وأن تجارتى منتشرة فى أنحاء المعمورة. فتدفقت فى الحديث تدفق الماء على أنهما أخذا يسألان عن تجارة بغداد، وعن المتاجر فى جزيرة العرب، والهند، والصين، وأخذا يطلبان إيضاحاً دقيقاً عن الحاصلات، وأحوال السوق فأسرعت إلى اقتضاب الحديث، وتحويل وجهته إلى المعلومات العامة. وأجبت إجابات لا تفيد شيئاً. وحين انتهيت شعرت بأنه لا يزال ينقصنى شىء، وهو أن يرى عثمان أغا ما أنا فيه من سعادة، وأن أخبره بأمر زواجى، وأدعوه إلى الوليمة.

ولكن هل أنا سعيد حقاً؟ هل أنا صاحب هذه الثروة الطائلة؟ إننى أشعر بأنى أمثل دوراً لا حقيقة له. وهنا خفت أن يفتضح أمرى وتظهر حقيقتى ولم أجرؤ على الثقة حتى ولا بعثمان أغا لثرثرته ولعلمه بحقيقة حالى

وصممت على ألاّ تكون لى به ولا بأى إنسان من مواطنىّ علاقة ما ولو إلى أجل موقت إلى أن أشعر بأنى فى أمان وأنى قد ثبتت أقدامى فى مركزى الجديد فلا أخاف الافتضاح

الفصل السبعون

نزاع الزوجين

انقضت الوليمة على أحسن حال وأحسب أننى نجحت فى إقناع الضيوف بأنى نفس الرجل الذى زعمت أننى هو وأن شخصيتى حقيقية لا ريب

فى صدقها ، ومن ثم بدأت أطمئن على نفسى وأخذ شبح الخوف يغيب عن عينىّ فانصرفت إلى الملذات والتعرف على أصحاب اللهو وإخوان السرور وأن ألبس أفخم الثياب ، وكان منزلى موضوع الأحاديث ومطمح الأنظار فى المدينة ، ولست أستطيع أن أنكر أننى كنت أزداد كل يوم شعوراً بأنى مدين بكل ما أملك لزوجتى وآلمنى ذلك الشعور ونغص علىّ عيشتى ، وقد أدركت أن ستقوم بيننا منازعات عديدة على موضوعات أخرى غير فطائر الزبد وفطائر الجبن حتى لقد قلت فى نفسى : « ما كان أحسن حظ الأمير الشيخ ! لقد استطاع أن يعيش مع هذه الزوجة ثم لم يختلف معها إلا على أمر واحد مع أننا نختلف على كل أمر حتى لست أجد ما لسنا نختلف عليه »

وكنت قد عللت نفسى بأمنية غريبة وهى أن أظهر أمام مواطنىّ فى الخان الذى يقيمون فيه بشكلى وأبهتى . وأن أمتع نفسى بما يظهر على عثمان أغا عند رؤيتى من الذهول والارتباك ؛ فلما رأيت أن لا خطر علىّ وأننى أصبحت آمناً مطمئناً لم أرد أن أقاوم تلك الرغبة فلبست أحسن ثيابى وامتطيت خير جيادى وسار حولى كل خدمى وأتباعى وسرت فى ذلك الموكب فى أكثر ساعات النهار حركة إلى الخان الذى كنت قد أقمت فيه باسم تاجر غلايين أول مجيئى إلى الآستانة

لم يعرفنى حينما تخطيت باب الخان أحد بل اجتهد الكل فى خدمتى واحترامى ظانين أنهم سيجدون منى شارياً لكل ما لديهم من البضائع ، وجاء خدمى ببساط ثمين من أنفس الأبسطة وأغلاها وفرشوه لأجلس عليه . وناولونى كذلك شبكاً غالى الثمن أدخن فيه فجلست وسألت عن عثمان أغا فجاء الرجل وجلس على طرف بساطى بكل خشوع واحترام دون أن يعرفنى أو يخال . وأخذت أكلمه فى غير اهتمام مدة ما . وقد لاحظت أنه كان ينظر إلى نظرة المتشكك ثم صاح : « بحق النبى الكريم ألست حاجى بابا ؟ »

قال ذلك بعد أن عجز عن ضبط نفسه وإخفاء ما كان يدور بخلده

وضحكت كثيراً من منظر الرجل ومن قوله ثم تعارفنا وقصصت عليه مجمل أمرى وكيف تحولت الخمسون قطعة ذهبية التى اقترضتها منه إلى تلك الثروة التى يرى علاماتها بعينيه

ولا حظت أن عثمان أغا لم يتأثر من انتقالى الفجائى إلى ما كنت فيه من نعمة وثراء ولم يحركه منظرى وقصتى كثيراً إذ كان له عقل فيلسوف قليل الاهتمام . غير أنى لا حظت أن مواطنى حينما علموا أن لابس تلك العمامة الكبيرة والثياب الغالية وراكب ذلك الجواد وصاحب هؤلاء الخدم إنما هو حاجى بابا الذى كان بائع سلع مثلهم لم يستطيعوا كظم غيظهم ولا إخفاء حسدهم فأدركت ولكن أخيراً جداً أننى أخطأت خطأ جسيماً فى ظهورى بذلك المظهر أمام أبناء بلدتى وأردت أن أنسحب فى سكون من غير جلبة أو ضوضاء وإذا بأحدهم يقول :

« ماشاء الله ! أهذا حاجى بابا ابن الحلاق الأصفهانى ! دنس الله قبر أبيه وفضح أمه ! »

وقال آخر :

« أجدت وأحسنت يا ابن الأعجام ! لقد هزئت من ذقون الأتراك فليبعث الله إليك من يهزأ بك ، ويسخر منك »

وقال ثالث :

« أنظروا إلى عمامته الكبيرة ، وسراويله الطويلة ، وعلبونه الثمين . والله إن أباه لم ير مثل هذه الأشياء حتى ولا فى أحلامه » .

وظل آل بلدتى يوجهون إلىّ الكثير من هذا التقريظ إلى أن استجمعت كل ما أملك من عظمة ووقار بعد الذى كان ، وقمت من مجلسى فامتطيت جوادى ، وتركتهم يشيعونى بالنكات المريرة والضحكات المزرية والسخر والاحتكار .

حنقت أول الأمر عليهم ثم حنقت على نفسى بعد ذلك حنقاً شديداً . وقلت : « لقد جوزيت ياحاجى بابا جزاء عادلاً ! وحق رأس أبيك كربلائى حسن الحلاق لقد كوفئت على رعونتك ، وغبائك ! هل يجرؤ يوماً كلب أن يمشى بين ذئاب مفترسة ؟ هل قدر غبى من أغبياء المدن أن يسير بين وحوش العرب بدون أن يسرقوه أو ينهبوه .

قد يصير حاجى بابا عاقلاً حازماً فى يوم من الأيام ولكن يجب أن يذوق مرّ العذاب ويتجرع كؤوس الألم قبل أن يصل إلى تلك الغاية

ثم قبضت على لحيتى بيدى وتأوهت قائلاً : « ماذا أفادتنى هذه اللحية وماذا أكسبتنى شعراتها الطويلة ! لقد أصاب من قال : إن المرء لا يسره أبداً أن يرى ابن وطنه فى ارتفاع وارتقاء اللهم إلا إذا كان مرتفعاً إلى المشنقة ! »

وبقيت أحدّث نفسى بأمثال هذه الخيالات إلى أن وصلت إلى منزلى وهناك دخلت إلى محل الحرم محاولاً أن أجد الراحة من عناء اليوم ومتاعبه غير أنى لم أصب ما أردت فإن زوجتى زادت فى كربى وبلائى كأنما كانت تدفعها الشياطين وتحرضها أبالسة الجحيم إلى مضايقتى

طلبت إلىّ أن أقدم لها حالاً كل المبلغ الذى ذكرته فى وثيقة زواجى . وظلت تلح فى طلبها وتردده بحالة لم أتحملها مع ما كنت فيه من غيظ وضيق صدر بسبب ما حدث بينى وبين أبناء بلدى

ولم أشعر إلا وقد انفجرت انفجاراً شديداً وجعلت أهذى هذياناً مريباً مصحوباً بالإشارات العنيفة وأمطرت أبناء بلدى وزوجتى وابلاً من اللعنات والشتائم القبيحة والسباب البذئ حتى غدوت أنا الذى كنت وديعاً لطيفاً أكثر شراسة من الوحوش الضوارى

ذهلت زوجتى مما أبديته وتفوهت به وتراجعت قليلاً إلى أن وقفت ومن ورائها خدمها وعبيدها وأتباعها تتقدمهم عائشة منتظرة فرصة تستطيع فيها الكلام

وأخيراً تكلمت وتكلمت حتى بدا ثغرها أصغر من أن يسع كل ماتفوهت به من ألفاظ وما خرج من فمها من كلام

ولم يمنع عائشة ومن معها من الخدم والأتباع ما كانت تقوله سيدتهم من الكلام فتكلمن حتى كأنما هبت فى الحجرة عاصفة من ألفاظ عنيفة وشتائم متوالية كلها موجهة إلىّ

كنت أرغب فى المقاومة غير أنى لم أستطع فقد كانت الحجرة كأنها ساحة ضجيج وسوق شتائم وصراخ وضاقت الحجرة عن أن تسعنا جميعاً . وكنت أول من فكر فى التقهقر والهرب فانسحبت من مسكن الحرم بين اللعنات والسباب والضجيج والتدافع والتلاطم وعلى رأس الجميع زوجتى العزيزة فكانت هذه المخلوقات اللطيفة أشبه بالشياطين منها بالحور التى وعد الله بها عباده المتقين فى الفردوس المنشود .

أويت إلى حجرتى منهوك القوى مضعضع العزم خائر النفس مما حدث فى يومي من أرزاء وخطوب وأوصدت باب حجرتى وجلست فيها وأنا أشعر بأنى أتعس مخلوق دب على الأرض رغم ما يحيط بى من عز وأبهة ورغم أنى صاحب كل هذه الرياش والنفائس وجعلت أندب سوء حظى متوقعاً ما يجىء به الغد . وشعرت بما يشعر به المسجون من الظنون والريب وكان من الواضح أنى لو حاولت أن أخفف من بلواى باختلاق أكاذيب جديدة فإن آخرتى ستكون شر آخرة ومصيرى أقبح مصير

ثم قلت لنفسى فى ألم وحيرة : « رحم الله أياماً كنت فيها حرا طليقاً فلو كنت لم أرتبط بعقود وأختام لتركت زوجتى تفعل ما تستطيع دون أن أحفل بما تفعل ، ولكننى الآن تقيدت بكتابات رسمية عليها توقيعى وسأظل أمام العالم كذوباً محتالاً

الفصل الحادى والسبعون

حاجى بابا يستكشف أمر اعتبار ويفقد زوجته

بت ليلتى قلقاً مسهداً لازمنى فيها الأرق فلم تذق عيناى الكرى حتى سمعت المؤذنين يعلنون انقضاء الليل وبزوغ الفجر ويدعون الناس إلى الصلاة . وكان استيقاظى إذ ذاك قبل أن تمر ساعة واحدة على اغماض عينى ، على صوت ضجة غير عادية فى زحبات المنزل . وأخبرنى أحد خدمى أن أخا زوجتى قد حضر إلى المنزل يصحبه قوم آخرون . فأصابتنى رعشة شديدة أفقدتنى كل ما كان لدى من عزيمة وقدرة . وقام فى ذهنى خمسون خاطراً كل منها يزيد على الآخر أهمية وخطورة ، وبدأت أشعر بأصابع قدمى قد أصابها خدر شديد فلم تقو السنون التى مضت على إضاعته ، وذكرت فى تلك اللحظة الدرس الذى تعلمته فى مشهد

ثم فكرت فى حالتى قائلاً : « ولكن أليست شكرليب زوجتى رغم كل ما حدث ؟ إنها زوجتى شرعاً مهما يكن ما حدث أو ما سوف يحدث، ولئن كنت قد بالغت قليلاً فى مقدار ثروتى فإننى لم أفعل لذلك غير الذى يفعله كل أبناء آدم »

ثم التفت إلى خادمى وقلت له : « بحق النبى دع القوم يأتون إلى هنا وأحضر لنا القهوة والغلايين »

رفع الخدم فراشى ونظفوا حجرتى ودخل الزوار واحداً بعد الآخر فى صف طويل وجلسوا على إيوانى وهم أخو زوجتى وأخو زوجها الأول وابنه ورجل آخر متجهم الطلعة شرس المنظر لم أكن قد رأيته من قبل

جلس هؤلاء ورأيت غيرهم سرباً من الخدم والأتباع وقوفاً فى آخر الحجرة وبينهم رجلان بشعا الشكل قد تسلحا بالعصى الغليظة ووقفا أمام الخدم ينظران إلىّ نظرات تنطوى على الشر ولا تدل على صفاء ولا خير. اجتهدت أن أكون ساكناً رزيناً وألاّ أظهر بمظهر الخائف ما استطعت وتظاهرت بالبشر والارتياح لتلك الزيارة ورحبت بالزوار فلم يكن جوابهم على ما أبديت غير تمتمة لم أفقه لها معنى

أمرت بإحضار القهوة والغلايين ورجوت أن أعلم السبب فى تشريفى فقلت لشقيق زوجتى الأكبر : « أسعد الله صباحك يا عزيزى . هل أستطيع أن أؤدى لك أية خدمة فى هذا الوقت المبكر من النهار ؟ ليس عليك إلا أن تأمر فتطاع »

فقال بعد أن لزم الصمت برهة : « حاجى بابا ! أنظر إلىّ ! هل تظننا حيوانات لا تفقه ولا تنفع ؟ هل تعد نفسك رجل اليوم فلا قرين لك ولا نظير فتضحك من ذقوننا وتعبث بكرامتنا ما شئت وشاء لك عقلك ؟ »

فأجبته بقولي : « ما هذا الذي تقوله يا سيدي الأب ؟ إنني لا أدعي أي دعوى ولست إلا رجلاً فقيراً لا يزن قبضة من التراب »

فقال أخوه الثاني في حماس وحدة : « أيها الرجل كيف تزعم أنك لا تدعي الدعاوى العراض ؟ ما الذي صنعته بنا إذن ؟ هل حسبتنا أغناماً حتى تتحمل مشقة المجيء من بغداد إلى هنا لكي تسخر منا ؟ »

فصحت متألماً : « يا الله ! يا الله ! ما هذا ياسادتي؟ لماذا تتحدثون بهذه اللهجة المرة ؟ ماذا صنعت حتى أستحق منكم كل هذا ؟ تكلموا بحق السماء وأصدقوني ! »

فقال عم زوجتي وهو يهز رأسه ولحيته البيضاء :

« ما أخبثك يا حاجي بابا ! ما ألأم طبعك ! لقد صاغك الله يوم صاغك من خبث ورياء فظننت أن خبثك يجوز علينا ورياءك ينطلي على عقولنا . كلا كلا ! إن ذلك لن يكون »

فقلت له : « ولكن بحقك يا عماه ماذا جنيت ؟ تكلم ! »

فقال ابن عم زوجتي : « ماذا جنيت ! ؟ أتقول ماذا جنيت ؟ إنك قد كذبت وسرقت وتزوجت امرأة بعد أن خدعتها . ألا يرضيك كل هذا ؟ أنك لا تستحي ولا ماء في وجهك. هل تظن أنك لم تأت أمراً ؟ »

وهنا قال صهري الأكبر : « ربما ظننت أنك أكسبتنا شرفاً عظيماً وأن ابن حلاق أصفهاني قد تواضع فرضي بالزواج من ابنة أسرة من أغنى أسر الآستانة ! »

وقال آخر : « ربما خطر ببالك أو صور لك الوهم أن بائع قصبات التدخين تاجر عظيم يستحق أن يعقد له على شقيقتي »

وقال عمهما ساخراً : « نحمد الله ونشكر فضله ! إن حاجي بابا تاجر لا نظير له فإن حرائره وديباجه في الطريق إلى بخارى لتستبدل بها جلود ، وإن شيلانه في طريقها إلينا من كشمير وإن سفنه قد حجبت سطح البحار ما بين الصين وبوشهر ! »

وقال ابنه متمماً : « ونسبه وأصله ! هل قلت إنك ابن حلاق ؟ حاشا لله ! اللهم رحمتك وغفرانك فإن نسبه ينتهي إلى قريش وليس هو من قريش فقط بل هو شريف من العترة النبوية . من ذا الذي يوازي أسرة المنصوري ! ؟ »

وكنت قد لاحظت أن العاصفة على وشك الهبوب فجعلت أكرر : « ولكن لماذا كل هذا ؟ إن كنتم تريدون قتلي فافعلوا يا قوم ولا تنتزعوا جلدي قيراطاً قيراطاً بقارص كلامكم »

فقال الرجل المتجهم الوجه العبوس الطلعة بعد أن ظل صامتاً أثناء كل هذه الأحاديث : « أنا أتولى إخبارك عما ترى وتسمع أيها الكافر المنافق . إنك خسيس نذل لا تستحق أن تعيش فإن لم تترك ادعاءك ومظاهرك الكاذبة وتترك زوجتك وهذا المنزل وكل ما يحتويه بغير إبطاء فأنت ترى هذين الرجلين (وأشار إلى المتشردين الواقفين أمام الخدم بالعصى الغليظة) وهما ينزعان روحك من جسدك النجس كما تنزع بقايا التبغ من الغليون . لقد أخبرتك بما سيكون وتركت لك الخيار فاختر لنفسك ما يحلو »

وكأنما أثرت ألفاظه في جميع الموجودين فأطلقوا لأنفسهم العنان وصبوا عليّ اللعنات والشتائم دون مبالاة ولا احترام . وظللت صامتاً في تلك العاصفة الثائرة لم أنبس ببنت شفة ووجدت من صمتي فرصة للتفكير .

رأيت أن أتبين ماذا تكون نتيجة المقاومة فقلت لصاحب الوجه العبوس : « ولكن من أنت حتى

تجرؤ على دخول بيتي ومعاملتي كما يعامل الكلب الأجرب ؟ إن هؤلاء أصهاري ، وهم في منزلهم ، وأهلاً بهم ومرحباً ، ولكن أنت ماذا تكون قرابتك من زوجتي ؟ لست بأبيها ، ولا بأخيها ، ولا عمها فماذا تصنع هنا ؟ إني لم أتزوج ابنتك أو أختك فماذا يهمك ؟ » .

وكان أثناء حديثي يحتدم غيظاً وغضباً ، ونظر إلىّ كما ينظر الأسد إلى فريسة يهم بالهجوم عليها . وقال وصوته يتمثل فيه الغضب والحنق : « إن أردت أن تعلم من أنا فسل الذين أتوا بي إلى هنا . إنني ورجالي نعمل بأمر الحكومة وسلطة القانون ، فإن قاومت كان الأمر وبالاً عليك وخسراناً » .

فأدركت أن الرجل وأتباعه من رجال الشرطة فقلت وقد خفضت من لهجتي وألنت من ألفاظي : « ولكنك إن أردت أن تفرق بيني وبين زوجتي التي تزوجت بها على كتاب الله وسنة رسوله فاترك لي فرصة أستشير فيها رجال الشرع إذ كل مسلم تحميه نصوص القرآن الشريف وأظنك لا تأبى عليّ استعمال هذا الحق . وفوق ذلك فإن زوجتي لم تبد رغبتها حتى الآن في الانفصال أو قبول ما تعرضه عليّ أنت ... إنها هي التي بحثت عني ولم أكن الباحث عنها ورضيت بي بعلاً وأحبتني دون أن تفكر في أي أمر مادي مما تشيرون إليه . وحين قبلت أن أقترن بها لم أكن أعلم من أمرها شيئاً ولم أكن أعلق أية أهمية على غناها أو مركز أسرتها . لقد كانت إرادة الله السابقة هي التي جمعتنا وأنتم مسلمون فهل تعارضون تلك الإرادة ؟ »

فقال أكبر أصهاري سناً : « لا تجهد نفسك في الكلام عن إرادة شكر ليب ورغبتها فإنها تتمنى الانفصال أكثر مما نتمناه نحن »

وسمعت في هذه اللحظة جملة أصوات تصيح :

« نعم نعم بحق النبي ! أتركوه يذهب إلى سبيله . بالله عليكم أريحونا من طلعته »

صدرت هذه الكلمات والآلاف من قبيلها عن ناحية الباب فنظرت إلى جهة الصوت من مسكن الحرم فرأيت عند بابه زوجتي على رأس جماعة من النساء كأنما أحضرت لتشهد ضدي ولتبدي رغبتها في الانفصال عني

وأخذ النسوة يصرخن ويلعنني ناقمات نادبات كأنما لبستهن روح عفريت وكأنني كنت رجساً من عمل الشيطان ويجب تنظيف المنزل منه

وجدت نفسي وحيداً غريباً في بلدة لا مساعد لي فيها ولا معين ، ورأيت أن لا حيلة لي أمام قوة عظيمة لا أستطيع الوقوف أمامها فتجلدت قليلاً وقمت من موضعي وأنا أقول :

« إن كانت هذه هي رغبتكم فليكن ما تريدون إني غير راغب في شكر ليب ولا في مالها ولا في أخويها ولا في عمها ولا في أي شيء مما يملكون ما داموا جميعاً لا يرغبون فيّ ، غير أنني أقول اليوم إنهم عاملوني معاملة لا يعاملها مسلم لأخيه ، ولو أنني كنت كلباً بين جماعة من الكفار لعوملت بأحسن مما أعامل به الآن . وفي يقيني واعتقادي أن العذاب الذي سيناله من أساءوا إلى النبي سيناله يوم القيامة من أساءوا إلى واضطهدوني »

ووقفت في وسط الحجرة بين الموجودين وقد تشجعت وتحمست بسبب ما ألقيته عليهم من الكلمات وخلعت جميع ما كان عليّ من الملابس التي اشتريتها أو أخذتها من مال زوجتي ورميت بذلك على الأرض في احتقار وعزة نفس كأنما هي وباء يخشى منه ثم طلبت جبة قديمة كانت لي ووضعتها على كتفي وانطلقت إلى الخارج وأنا ألعن كل من تركت

(يتبع) عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين ﴾